يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ
شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي
مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ
يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم
بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا
أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

[١٢] يأيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات يعاهدنك علىٰ: ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يرتكبن جريمة السرقة، ولا جريمة الزنىٰ التي هي من أسوأ الفواحش، ولا يقتلن أولادهن كما كان يفعله أهل الجاهلية؛ خوف العار أو خشية الفقر، ولا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم، ولا يخالفنك في معروف أمرتهن به، فعلىٰ هذه الشروط بايعهن يانبي الله، واطلب من الله المغفرة لهن؛ فهو سبحانه غفور لذنوب عباده التائبين، كثير الرحمة بهم.

[١٣] ثم ختم جل وعلا السورة بنهي عباده المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ؛ عن موالاة اليهود والنصارىٰ وسائر الكفار الذين غضب الله عليهم فاستحقوا الطرد من رحمته؛ بسبب كفرهم وضلالهم؛ فحذر سبحانه من موالاتهم؛ سواء كانوا أصدقاء أو أخلاء، وهؤلاء الفجار قد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور من عودة أمواتهم إلىٰ الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا.

سورة الصف

سورة الصف مدنية وآياتها أربع عشرة آية.

[١] يخبر جل وعلا أن جميع من في السماوات والأرض ينزه الله ويقدسه عما لا يليق به سبحانه من صفات النقص والعيب، ثم أخبر أنه العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في كل ما يصدر منه.

وفي هذه الآية إرشاد لمشروعية التسبيح في كل وقت.

[٢-٣] يعاتب جل وعلا عبادة المؤمنين علىٰ عدم موافقة العمل للقول، فقال سبحانه: يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ لِمَ تقولون من الخير ما لا تفعلونه؟ فقد عظم هذا الفعل جرمًا عند الله أن تقولوا ثم لا تفعلون، لأن الوفاء بالوعد دليل علىٰ الصدق وكريم الشيم، وجميل الخصال. روي في حديث أخرجه أحمد والترمذي عن عبدالله بن سلام: أن رجالًا من الصحابة قالوا: لو نعلم العمل الأفضل الذي هو أحب الأعمال عند الله لعلمناه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:١-٢]، قال عبدالله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ(١).

وهذا الحديث ذكره ابن كثير في تفسيره، ثم قال: إن القول الذي لا يصدقه العمل يسبب الذم والمقت، والمقت: هو أشد الكره والبغض.

[٤] ثم بين جل وعلا أن من محاب الله الجهاد في سبيله؛ فهو سبحانه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم في وقوفهم يشبهون الجدار الذي لا فجوات فيه، أي: متراصين متلاصقين ليس بينهم فجوات. وقد كانت حروب الأعراب قبل ذلك مطاردة كل يجري يلاحق عدوه، أي: متفرقين.

[٥] واذكر يانبي الله لقومك قصة عبده وكليمه (موسىٰ بن عمران) حين قال لقومه بني إسرائيل: ياقوم لم تؤذونني وتخالفون أمري فتتركون القتال وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من رسالة ربىٰ؟ حيث رفضوا القتال مع موسىٰ وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢]، ولكن لما مالوا عن الحق بعد أن علموه غاية العلم وآثروا الباطل علىٰ الحق عاقبهم الله فصرف قلوبهم عن الهدىٰ نقمة منه تعالىٰ عليهم، والله سبحانه لا يهدي كل من خرج عن طاعته وهديه.

والهدف من ذكر قصة موسىٰ هو تسلية رسول الله ﷺ وإخباره أن الأنبياء يتلقون مصاعب ومخالفات من قومهم، مع أنهم يعلمون أنهم رسل الله، وينفذون تعاليمه وتعليم من كانوا قبلهم من الأنبياء والمصلحين، وحثُّه علىٰ الصبر والاحتساب.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٠٩)، والدارمي (٢٤٣٥)، وقال الشيخ الألباني في التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان: حسن صحيح.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى
تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ
مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

[٦] واذكر يانبي الله أيضًا لقومك حين قال عيسىٰ ابن مريم لقومه: يابني إسرائيل إني مرسل إليكم من الله، وإني مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعًا من تقدم منهم ومن تأخر، وذكر تصديقه للتوراة ليعلموا أنه مؤمن برسالة موسىٰ لعلهم يهتدون، ثم قال لهم: وإني جئت لأبشركم ببعثة رسول سوف يأتي بعدي يسمىٰ (أحمد)، وهو محمد ﷺ، ولما جاءهم محمد ﷺ المبشّر به بالأدلة الواضحة البينة، كذبوه وأعرضوا عنه وعما جاء به، وقالوا: إن ما جئت به ما هو إلا أباطيل، وسحر واضح لا شك فيه.

[٧] ثم بين جل وعلا أنه ليس هناك أشد ظلمًا من ذلك الإنسان الذي يختلق علىٰ الله الكذب، وذلك بنسبة الشريك والولد إليه، وَوَصْفِ آياته بالسحر، في حين أن الله يدعوه للإسلام، ثم بين سبحانه أنه لا يمكن أن يرشد أو يوفق القوم الظالمين؛ لإصرارهم علىٰ الكفر والشرك، وَلِحَسدِهم بأن الله بعث نبيًّا ليس من بني يعقوب عليه السلام.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود والكفار يريدون أن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بطعنهم وافتراءاتهم؛ فهؤلاء مثلهم كمثل من ينفخ في الشمس بفيه ليطفئ نورها، ويحجب ضياءها، وأنىٰ له ذلك؟ فليعلم هؤلاء المشركون بأن الله متم نوره ولو كره الجاحدون المكذبون، ولا راد لحكمه وقضائه جل في علاه.

[٩] ثم أخبر جل وعلا أنه بقدرته وحكمته بعث رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن الواضح البين، والملة الحقة، وهي ملة الإسلام؛ ليعليه علىٰ جميع الأديان؛ فيجعله دينًا شائعًا وغالبًا ومنتصرًا علىٰ كل الأديان، ولو كره المشركون الذين أشركوا مع الله غيره، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

[١٠] ثم دل جل وعلا عباده المؤمنين علىٰ سبيل التجارة الرابحة في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: هل أرشدكم أيها المؤمنون علىٰ تجارة عظيمة الربح، ثمرتها النجاة من عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

[١١] ثم بين سبحانه أن هذه التجارة هي أن تؤمنوا بالله ورسوله إيمانًا صادقًا، لا يشوبه شك ولا نفاق، وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله؛ واعلموا أن هذا الإيمان وهذا الجهاد خير لكم من كل شيء في الدنيا؛ فخير من النفس والمال والولد؛ إن كنتم تعلمون ما ينفعكم ويضركم.

فجعل سبحانه الإيمان والجهاد هما التجارة الرابحة، تشبيهًا في الاستثمار علىٰ معنىٰ المبادلة والمعاوضة، طلبًا لنيل الفضل والزيادة في الثواب والرفعة عند الله؛ لأن التجارة معاوضة بالمال لطلب الربح.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أن من يفعل ذلك منكم أيها المؤمنون، أي: يؤمن بالله ويجاهد في سبيله؛ فإن الله سوف يغفر له جميع ذنوبه فيسترها عليه ويمحوها عنه فضلًا منه ورحمه، ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ويعطيكم قصورًا مشتملة علىٰ كل ما هو طيب ونافع، وهذه القصور توجد في جنات عالية دائمة لا تنقطع، واعلموا أن ذلك الذي منحناه لكم من مغفرة الذنوب والخلود في الجنة هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله.

[١٣] ثم بين جل وعلا إضافة علىٰ ما تقدم من النعم؛ أن الله منحكم نعمة أخرىٰ تحبونها وتتطلعون إليها، وهي نصر من الله سوف يأتيكم، وفتح عاجل يتم علىٰ أيديكم، وبشر يانبي الله المؤمنين بهذا النصر وهذا الفتح في الدنيا، ثم الجنة في الآخرة، حتىٰ يزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وتزداد قلوبهم انشراحًا وسرورًا. ولا شك أن فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا يدخل في هذا النصر وهذا الفتح القريب.

[١٤] حض جل وعلا عباده المؤمنين علىٰ نصرة دينه، فقال: ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ، كونوا أنصار الله، بإعلاء كلمته، كما قال عيسىٰ ابن مريم للحواريين: من ينصرني ويعينني لتبليغ دعوة الله؟ فقال الحواريون: نحن ننصرك، فلما بلّغ عيسىٰ رسالة ربه، اهتدت طائفة من بنىٰ إسرائيل، وضلت طائفة أخرىٰ، فقوىٰ سبحانه ونصر الذين آمنوا علىٰ عدوهم، وهم الطائفة الكافرة، وبهذا صار المؤمنون غالبين قاهرين لإعدائهم بفضل الله أولًا ثم بهذا النصر الذي وفقهم إليه.